

على هامش محاضرة :

## الشرف في طبيعة المستعمر

للأستاذ حبيب الزحلاوي

يحار المرء في تفسير ظاهرة الشر الواضحة في الشعوب الغربية المستعمرة، أمى طبيعة أصيلة فيهم أم هى نتيجة مباشرة لمعامل الاعتماد بالقوة و حياة الترف ولوازم المدنية ؟

لا شك في أن الشعوب الغربية المستعمرة بلفت من الرقى الاجتماعى ومن الآداب والعلوم والثقافة العامة والتسامى في التهذيب أو كادت تبلغ أوج التعلّم الانسانية ، فإلّا السر في أنها تقتتل في الحروب قتال الإبادة والفتن والتدمير والتخريب ، ويمتل الظافر فيها على سحق أخيه المنلوب ؟

ثم ما بال هذه الشعوب الغربية كالجزائر تعمل مداها في تلك الأغنام التى تندر الثروة عليها كما أحست بحركة تدب في هذه القطمان ؟ وما هى إلا الشعوب الشرقية الواقعة تحت سلطانها ودائرة نفوذها ؟

أفهم أن يستمسك الوارث بما ورثه عن الآباء والأجداد ، كما أفهم أن فى طبيعة النقى القوى جسماً يدفعه إلى تنمية ثروته وتوسيع جاهه ومد سلطانه كالشعب الانجائزى المستعمر ، أما الذى لا أفهمه ولا أجد سبيلاً إلى إدراكه فهو كيف يجوز لمبذر متلاف كالشعب الفرنسى الذى أضاع ما ورثه عن آبائه وأجداده وقد بسفه الأخلاق والاجتماعى ، كيف يسوغ له وهو القاصر المريض أن يزود بأسلحة الشر يُعملها فى رقاب من أرادوا الخلاص منه والانتعاش من رزاياه من سكان شمالى أفريقيا ، خصوصاً وأن الفرنسى كالانجائزى يستويان فى ادعاء تهذيب الشعوب وتدريبها على الحكم الذاتى .

أفهم أن نهم الاستثمار يسيل لماب الانجائزى ويدفع يده إلى امتلاك كل بقعة من الأرض مجاورة لما اغتصبت يده من قبل ، ولكل قطر سهلا كان أو جبلا ، نهراً أو قناة ، يقع فى طريق

امبراطوريته المترامية الأطراف .

أفهم ذلك والامبراطورية البريطانية خارجة ظافرة من حرب بذلت فى سبيلها مهجاً وأموالاً ، واكتسبت من جرائها عطف العالم عليها وإعجابها بها ، وبذلك لا أستغرب أن أراها تمد يدها تنترع قطراً من هنا وتحتل مقاطعة هناك ، وتتطلع إلى ما هناك ، وهى تنذرع بروح الديمقراطية وإسماعاد البشرية وتهذيب الشعوب وإفقاذاها من الخوف والمرض والجوع ، إنما الذى يدهشنى حقاً هو أن أرى دولة فرنسا فى حال من الهوان والبؤس والذل ، والفقر والضعف والجوع ، ومن الضمة الروحية والفاقة المنوية ، يدهشنى أن أراها تشر عن سواعد نخرة بالية تحمل سلاحاً فتاكاً ترى به العزل من أبناء تونس والجزائر ومراكش ، قطعانها التى تميش على صوفهم وتشبع من لحومهم كأنها تنقم من الألمان وقد داسوا كبرياءها بحوافر خيولهم .

\*\*\*

حزنى إلى هذا التساؤل والاستطراد محاضرة سمعتها من الأستاذ محمود عزمى ألقاها فى نادى الرابطة العربية عن مشاهداته فى شمال أفريقيا فبدالى أن أثارن بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية فى طريقة استعمارها الشعوب الشرقية المتضمة الواقعة تحت حكمهما ، مكتفياً بهما وحدهما ، لأن الحكومات الأوروبية المستعمرة الأخرى وإن كانت أكثر ظلماً ، وأوفر شرهاة وجسماً ، تهتدى دائماً بهدى الانجائز والفرنسيين فى استدلال الأمم واستعبادها ، وتحذو حذوها فى كل ما يقتران من شرور ومظالم وما يدبران لها من أغشية للتضليل والتوبة .

نعرف أن السياسة الانجليزية رأت أن تقف سداً دون انتشار التعليم فى مصر فرمت وزارة المعارف بطاغية يدمى دنلوب عمل جاهداً طلى أن يجمل من النشء الجدد موظفين لدوائر الحكومة محدودى المعرفة مسلوبي الإرادة .

وما كنا نعرف قبل أن عرفنا الأستاذ عزمى أن الفرنسيين فى تونس والجزائر ومراكش لا يسمحون بإنشاء مدرسة ابتدائية أو ثانوية إلا بإذن خاص من المقيم الفرنسى العام ، وما أندر ما يأذن ذلك الحاكم الأجنبي بانتتاح مثل تلك المدارس بحجة

وإننا نعرف جيداً أن حادث شهر فبراير المشؤوم ثابت في ذهن كل مصري ، ونعرف فوق ذلك أن الحكومات المصرية التي تولت الحكم إبان الحرب الأخيرة أبت على الحكومة الانجليزية الاشتراك رسمياً معها في الحرب مستمسكة بماهدة ١٩٣٦ التي تنص على حرية الحياد ، وعرفنا أن الحكم الفرنسي يستوي والحكم الانجليزي في معاملة الحاكمين ، حدثنا الأستاذ المحاضر عن « النصف » باي تونس قال : التزم هذا الماهل المخلص لوطنه شروط الحياد التام لبلاده ، وقد أبقى على الألمان ما أباه على الأمريكان والانجليز ، وقد وقف كذلك في وجه الفرنسيين يصد من عن تجنيد أبناء رعيته ، وقال : كان الجنرال جيرو يداً من أيدي المرشال بتان وذبناً من أذنان حكومة فيشي ، وأن هذا القائد عند ما جاء تونس لينضم إلى الجنرال ديغول أو يعمل معه ، كان أول ما عمله ترحيل النصف الباقي إلى فرنسا وأنه احتجزه في الصحراء ستة شهور حتى اضطره إلى كتابة صك تنازله عن المرش ، وعندها حملته طيارة إنجليزية إلى باريس بحرها شردمة من الجنود البريطانيين ، في حين أن الضباط الفرنسيين والطيارين الفرنسيين رفضوا نقل هذا الماهل المحبوب من شعبه ومن كل من عرفه أو اقترب من بلاطه .

يعرف كل من عاصر الثورة المصرية عام ١٩١٩ أن أحداث السنوات الخمس التي تلتها كانت أحداثاً جساماً ، وأن الانجليز لم يجابهوا الثورة مجابهة إلا عند ما كانوا يدعون دفع الأخطار عن مصلحتهم أو يتذرعون بحماية أرواح الأعيان وممتلكاتهم ، وعندها كانوا يمتشقون السلاح يعملون به ما يتوهمون أنه يقضي على روح الثورة المتأججة . فكمن من دماء أهدرت ، وشباب ذوى ، وأمهات ثكلت ، وزوجات تزلزلت ، وأرواح صعدت إلى بارئها تشهد على ظلم الظالمين ، وكم من صفحات أضيفت إلى تاريخ الاستعمار البريطاني سطرها اللورد الانبي بسيفه وقد حاول المرشال ويفل تبريرها وتمزيقها بقله ، وما تلك الصفحات سوى شهادة صادقة على خنق حرية الشعوب للفتية بأيدي دعاة أنصار الحرية .

أما موقعة الجزائر الأخيرة فقد رواها الأستاذ محمود عزمي ، ومرزها الأستاذ أمين الجامعة الربية . قال الأول : فمك ، دعاية الحلفاء ضلها في نفوس الفرنسيين وتأثروا كما تأثر سوام بميثاق

أن التعليم يجب أن يبقى قاصراً في الكتابات على حفظ القرآن ، وأن ما نسمع عن المدارس المالية هناك فأعنا أمرها بيد الفرنسيين وحدهم وأن برامجها موضوعة وفق مشيئة الروح الاستعماري وهو ولا شك أضل وأسوأ من مشيئة دنلوب .

نعرف أن الشعوب الشرقية التي يحتل الانجليزي بلادها بحكمهم وفق قوانين موضوعة ومحاكم قاعة وأحكام تنشر وتذاع ، بيد أن أقطار شمال أفريقيا تحكم ، كما روى الأستاذ عزمي ، بنير قوانين ، وأن ليس في « رباط » قانون عقوبات ، إنما لها محاكم شرعية تحكم في الأحوال الشخصية وتفصل في الملكيات الوراثية ، ولها محاكم أخرى تسمى محاكم الباشا عليها مراقبون فرنسيون من رجال الإدارة يرشدون الحاكم الذي إلى الحكم على التهم .

نعرف أن الانجليز في مصر من حاكين ومقيمين أقل الناس استملاكاً واستثماراً للأراضي الزراعية ، بيد أن الحال يختلف مع الفرنسيين من حاكين ومقيمين في شمال أفريقيا في امتلاك الأرض ، وقد سمعنا من الأستاذ المحاضر أن المستعمر الفرنسي يملك الأرض ويستأجر الأهالي لاستغلالها بأجور ويقرضهم مالا لا يقوون على سداه ، وبذلك المال المقرض يبقى الفرنسي المالك قابضاً على عنق الغربي الأجير طول حياته .

نعرف أن الندوب السامى الانجليزي في مصر حاكم يريض وراء الستار يعمل متوارياً ما يصون مصالح حكومته ومنافعها ، وما عرفت مصر مندوباً سامياً يحمل عصا الديكتاتورية المقننة سوى كرومر وكشتر والنبي ، وقل من عرفت منهم من عاش في ظل الأحكام العرفية في أيام السلم . بيد أن الحال في بلاد المغرب تستوي في السلم وفي الحرب ، فإن الأحكام العرفية هناك مطبوعة منذ عام ١٩١٢ وحجة الفرنسيين في إعلانها كما قال الأستاذ عزمي أنها تمنح القسيم العام حرية مطلقة في الحكم والتصرف الإداري ولولاها لوجب عليه أن يراجع باريس في كل كبيرة وصغيرة من شؤون السياسة والإدارة والقضاء .

نعرف أن الانجليز في مصر ممنوا الخديو عباس من المودة إلى بلاده وأنهم خلموه من ولايته الشرعية ، وأنهم هياوا أحد راجات الهند لاعتلاء المرش المصري ، وأن السلطان حسين أتخذ البيت المالك بقبوله ولاية السلطنة إبان الحرب المالية الأولى ،

خواطر مسجوعة :

## فلسفة الأمل . . .

سأل سائل : ما الأمل ؟ قلت : مصحح الملل ، ومبديد  
 الملل ، ومتقن العمل . مذل الصعاب ، ومهون العذاب .  
 مُصِحِّد التراب ، ومكوثِر السراب . مُصَفِّر ما جل ،  
 ومكثِّر ما قل ، ومُغْنِي القل ، وبسبي لعل ! الأمل ساحر  
 مُزَوِّق ، بالأوهام يسرق ، وكاذب مَلْفَق ، فلما يصدق ! الأمل  
 سالب الأحلام ، وناهب الأيام ، وغالب الآلام ، ومصاحب  
 المولود حتى الحمام ! ما أحب الأمل إلى القلب ، وإن استحق  
 التلب ! فوعده عذب ، وكذبه خطب . خياله فتنة ،  
 وحقيقته محنة . بدايته جنة ، ونهايته جنة ! الأمل بصور  
 المستقبل أجل تصوير ، وما تصويره إلا ترور ؛ ويُقدَّر  
 الخبوء أحسن تقدير ، وما تقديره إلا تفرير ! الأمل كالأفق  
 الممتد ، يظهر على بعد ، وكأنه بعد خطوات مُتَمِّد ، يكون  
 في متناول اليد ! يُجَسِّم لنا الوهم ، فنخطئ الفهم ، وتسرع  
 في الحكم ، على الخبيئات الصم البكم ! رونقه جذاب ،  
 ومنطقه خلاب . خمرته أشهى من ابنة الأعناب ، ونشوته  
 عزم متوقد وثاب ؛ فإذا حسرت الحقيقة عن وجهها نقاباً ،  
 وكشفت الطبيعة عن سرها حجاباً ، تبدلت خمرة الأمل  
 صاباً ، ونشوته أوصاباً ! فهو الهَمُّ المرغوب ، والرض  
 المحبوب ، والصديق الكذوب ، والجاد اللعوب ! يُثَقِّل  
 ولا يُقِيل ، ويُطِيع ولا يُبِيع ، ومن عجب أنه يُخِيل ،  
 وكل الناس له خليل ! بيد أن له في الحياة شأنًا يُؤَثِّر ،  
 وأثرًا يُذَكِّر ؛ فإذا قلنا : إن الحى بدونه كمن يقبر ، فهو  
 بلا شك اليمت الأصغر ! يخلق من البهوضة جلا ، ومن  
 الذرة جبلا ، ومن الضيق سبلا ، ومن الظلمة بدرًا مكتملا ؛  
 ومن الضعف قوة ، ومن الشيخوخة فتوة ، ومن مرارة  
 العيش لذة سائنة حلوة ، ومن الشقاوة سعادة مرئية مرجوة !  
 فلولا الأمل ما تبار مثابر ، ولا خاطر مخاطر ، وما  
 تسابق قاصر وماهر ، ولا تنافس طاجز وقادر . ولولا  
 ما حلا زاد ، ولا طاب رقاد ، ولا تسلى فؤاد ، بميماد  
 بعده ميماد !

هاصم ميرزا

الأطلنطي . وسحرتهم الديمقراطية الفاتنة واجتذبتهم الحرية ،  
 فما إن أتى الفرنسيون المتحاربون سلاحهم حتى هب الشعب الجزائري  
 هبة واحدة يظهر شموذ الفرح والغبطة بدنو الحرية ، فشبى في الشوارع  
 أفواجاً منظمة يحمل أبنائه الأعلام واللافتات فيها دعاء للحرية  
 ومطالبة بالاستقلال .

هال المستعمر سماع صوت الشعب وحرارة نداءه فأمر القيم  
 العام البوليس بتفريق المتظاهرين وتمزيق أعلامهم ولافتاتهم ، فنفذ  
 البوليس الأمر بغلظة وقسوة . هاج الشعب وغضب لهذه المقابلة  
 الظالمة فماد ثانية إلى التجمع والناداة بغضب للحرية والاستقلال ،  
 فقابلهم البوليس ثانية برصاص البنادق ، ففر الشعب إلى الضواحي  
 يصب غضبه على بيوت الفرنسيين .

قامت قيامة القيم العام فأمر الجيش بإخماد الثورة . مشى  
 الجيش بجانبه أصحاب الأراضي من الفرنسيين وقد نضوا ثيابهم  
 المدنية وأخذوا يملكون سلاحهم معه في رقاب الأهلين ونيرانهم  
 في أكواخهم ، وما زالوا بهم تقتيلاً ومحرقة حتى طرحوا بقاياهم  
 في الصحراء ، وقد أنجحت الواقعة عن ثلاثين ألفاً من القتلى .

وقد عزز هذه الحكاية سعادة الأستاذ أمين الجلامه العربية  
 بقوله : لما كنت في باريس حدثت أولى الأمر هناك بهذه الواقعة  
 المحزنة فلم أسمع منهم إنكاراً لها ، ولكنهم قالوا إن فيها مبالغة ،  
 والحقيقة التي اعترفوا بها هي أن عدد القتلى لم يتجاوز الثمانية عشر ألفاً !  
 وددت لو اتسع المجال لمرض كل ما سمعت من الأستاذ  
 المحاضر ومقارنة أعمال المستعمرين بعضها ببعض ، ولكن ما إلى  
 هذا رميت ، ولا إلى التمهيد قصدت ، إنما مرماي هو كشف  
 النقاب عن الظلم الكامن في نفوس الغربيين المستعمرين ، ثم  
 ما هو الواجب علينا حيالهم .

أنا لمت مؤمناً بالإنسان ولا بملومه ، ولا بمقله ، وقد كشف  
 الكثير من أسرار الطبيعة ، وأنكر كل الإنكار المدنية  
 والحضارة والتهديب والكياسة وكل الأخلاق الفاضلة في الشعوب  
 الأوروبية التي لم تقو على محو روح الشر المتأصل فيها ولا اقتلاع  
 جذور الظلم الكامن في جوانبها ، ولا هبوط حمى الجشع المستعمر  
 في ضلوعها ، إنما أومن عن عقيدة بأن الشر يدفع الشر وأن الظلم  
 لا يقتله إلا الظلم .

هييب الزمزمي